الصباح الإسلامية
09
العدد 1650 - السنة السادسة
الجمعة 22 شوال 1434 - الموافق 30 اغسطس 2013
Friday 30 August 2013 - No.1650 - 6th Year

لم ينفصل التوكل عن معاني قوة الإرادة وبذل الجهد إلا في عصور ضعف الإسلام

المسلم الحق ينأى عن مواطن الهُون ويضرب في فجاج الأرض ابتغاء العزة والكرامة

■ التعاسة النفسية والهوان الاجتماعي قد يجعلان الإنسان كثير التشاؤم قليل الإنتاج ..وواجبنا بذل كل جهد للتخلص من قيودهما

■ المسلم يجب أن ينكر بقوة عيوب المجتمع دون تهيب لكبير أو استحياء من قريب ولا تأخذه في الله لومة لائم

التوكل الحق قرين الجهد المضني والإرادة المصممة ولم يتفرد التوكل عن هذه المعاني إلا في العصور التي مُسخ فيها الإسلام، وأصبح بين أتباعه لهوا ولعبا ومما يجعل المسلم قويا أن يبتعد عن حياة الخلاعة والفجور، وأن يألف مسالك النزاهة والاستقامة فإن الرجل الخرب الذمة أو الساقط المروءة لا قوة له ولو لبس جلود السباع، ومشى في ركاب الملوك. وقد نصح الله قوم هود فأرشدهم إلى أسباب القوة الصحيحة، وكانوا عمالقة جبارين، فقال: «ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين».

وأراد رسول الله أن يزين الطاعات للناس، وأن يغريهم بادائها، وأن يشرح لهم عظمة الإنسان عندما يفعل الخير ويراغم الشيطان ويسمو إلى الملأ الأعلى فضرب لهم هذا المثل في سياق حديث له، قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتتكفأ فأرساها بالجبال فاستقرت. فتعجب الملائكة من شدة الجبال فقالت: يا ربنا هل خلقت خلقا أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد. قالوا: فهل خلقت خلقا أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار، قالوا: فقل خلقت خلقا أشد من النار؟ قال: نعم، الماء قالوا: فهل خلقت خلقا أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح، قالوا: فهل خلقت خلقا أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم إذا تصدق صدقة بيمينه فأخفاها عن شماله» إن الإنسان، هذا الكائن العجيب، يعتبر سيدا لعناصر الكون كلها، يوازن أعتاها وأقساها فيرجحه ويربو عليه، يوم يكون شخصًا فاضلا! ولكنه يُلعَن في الأرض والسماء اذا انحدر عن الفضائل، والمثل الذي ذكره الحديث ليس إلا إبرازا لقيمة الرجل المحسن وتصويرا لرسوخه وسموه عندما يسبق في ميدان الخير. ومن عناصر القوة أن يكون المسلم صريحا، يواجه الناس بقلب مفتوح ومبادئ معروفة، لا يصانع على حساب الحق بما يغض من كرامته وكرامة أنصاره، بل يجعل قوته من قوة العقيدة التي يمثلها ويعيش لها. ولا يحيد عن هذه الصراحة أبدا في تقرير حقيقة ما. حدث أن كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات ابنه إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم!! فقام رسول الله يخطب الناس، فقال: «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله تعالى يُريهما عباده. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة». ذلك أن الشخص الذي يحيا في الحقائق لا يتاجر بالأباطيل، فهو غني عنها، وصراحته دليل على ثروة عريضة من الشرف، تغني صاحبها عن الدجل والاستغلال، وتقيم سيرته على ركائز ثابتة من الفضيلة والكمال. وقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنبثق من هذا السمو النفسي، لأنها تعتمد على مصارحة بما فرط منهم ابتغاء محوه لتثبت مكانه الصواب والخير.

والذي نريد توكيده هنا أن المسلم يجب أن يكون نقادة للعيوب الفاشية، جريئا في الحملة عليها، لا يتهيب كبيرا ولا يستحي من قريب، ولا تأخذه في الله لومة لائم.. وقد كره الإسلام أن يضعف الرجل أمام العصاة من الكبراء، وأن يناديهم بألفاظ التكريم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قال الرجل للمنافق: يا سيد، فقد أغضب ربه». ماء ويرجحه الذر والهباء يوم يكون شخصا ساقطا. وإنها لجريمة مضاعفة أن ينتهك امرؤ الحرمات المصونة، ثم يستمع إلى من يبجلونه لا إلى من يحقرونه. «ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء». وتحريم الإسلام للغيبة فيه محافظة على رجولة المسلم، وإمساك لعنصر القوة فيه، فإن الشخص الذي يتخنس ليُنفس عن أحقاده في الخفاء بذكر المعايب المستورة أو المعروفة، هو لا شك شخص وضيع. والرجل الذي يأنس من نفسه قوة الاستجابة لدواعي الحق يواجه من شاء بما شاء ولا يتوارى ليطعن من وراء ستار. وليس معنى ذلك أن نجابه بالسوء من نود مساءاتهم. بل إذا وجدنا في امرئ ما عيبا فنحن بإزائه بين أمور معينة: إن كان هذا العيب عاهة في بدنه، أو ضالة في مرتبته، فمن السفاهة التشنيع عليه به عيانا أو غيابا. وإن كان ذنبا انزلق إليه وليس من شأنه أن يقارفه، إنما هي كبوة الجواد، فمن الدناءة أن نفضح مثله، وأن نشهر بين الناس به. وإن كان العيب الذي وجدناه جرأة مستهتر أو معصية مجاهر، فهذا الذي يجب أن يقابل بكلمة الحق، تقرع أذنيه دون مبالاة. ولكي ما تكون هذه الكلمة خالصة ينبغي أن تبتعد عن مشاعر الشماتة وحب الأذى، وأن تقترن بالرغبة المجردة في تغيير القبيح، وإصلاح الفرد والجماعة. وليس من هذا البتة أن تذكر العاصي بشر عند أعدائه لتقترب من قلوبهم، أو لتطعم من موائدهم، أو لتتظاهر بالبراءة من الخصال التي ذممتها فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يُطعمه مثلها من جهنم، ومن كسى ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». إن الغيبة شيمة الضعاف «وكل اغتياب جهد من لا جهد له».

والإسلام يكره أولئك الذين يعيشون في الدنيا أذنابا، تغلب عليهم طبائع الزلفى والتهافت على خيرات الآخرين، ويحبون أن يكونوا في هذه الحياة كالثعالب التي تقتات من فضلات الأسود.

إن المسلم أكبر من أن يربط كيانه بغيره على هذا النحو الوضيع، بل يجب أن ينأى عن مواطن الهُون، وأن يضرب في فجاج الأرض يبتغي العزة والكرامة. وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحاب الجنة وخلالهم، وأصحاب النار وخلالهم، فعد فضائل القوة والكرامة والنبل في الأولين وقرن رذائل الهوان والاختلاس والعجز والتلاعب بالآخرين قال: «..أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم. وعفيف متعفف ذو عيال. وأهل النار: الخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه. ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك. وذكر البخل والكذب، والشنطير الفحاش، وإن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد». على أن هناك أمورا قد تعرض للمسلم فينوء بها، وربما يهون في نفسه ما دامت مصاحبة له: فالتعاسة النفسية والهوان الاجتماعي قد يضغطان على الإنسان ضغطا يُقعده، ويجعله سيئ التفكير، كثير التشاؤم، قليل الإنتاج، وواجب المسلم أن يبذل كل جهد للتملص من هذه القيود الكئيبة، والخروج من مأزقها القابضة. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بربه من هذه المصائب الهدامة «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك: من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال». والصبر والرجاء، هما عدة اليوم والغد، ويتحمل المرء في ظلهما المصائب الفادحة فلا يذل، بل يظل محصنا من نواحيه كلها، عاليا على الأحداث والفتن لأنه مؤمن والمؤمن لا يضرع إلا إلى الله».

ما تعرض له الصحابة من ابتلاء

عثمان بن مظعون وخالد بن سعيد.. تضحية بالدنيا من أجل الآخرة

كان اسلام خالد بن سعيد بن العاص قديمًا، لرؤيا رآها عند أول ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، اذ رأى كأنه وقف على شفير النار، وهناك من يدفعه فيها، والرسول يلتزمه لئلا يقع، ففزع من نومه، معتقدًا أن هذه الرؤيا حق، فقصها على أبي بكر الصديق، فقال له: أريد بك خيرًا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه، فذهب اليه فاسلم، وأخفى اسلامه خوفًا من أبيه، لكن أباه علم لما رأى كثرة تغيبه عنه، فبعث اخوته الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد في طلبه، فجيء به، فأبيه وضربه بمقرعة أو عصا كانت في يده حتى كسرها على رأسه، ثم حبسه بمكة، ومنع اخوته من الكلام معه، وحذرهم من عمله، ثم ضيق عليه الخناق فأجاعه، وقطع عنه الماء ثلاثة أيام، وهو صابر محتسب، ثم قال له أبوه: والله لأمنعنك القوت، فقال خالد: ان منعتني فان الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يكرمه، ويكون معه، ثم رأى أن يهاجر الى الحبشة مع من هاجر اليها من المسلمين في المرة الثانية.

عثمان بن مظعون رضي الله عنه لما أسلم اعتدى عليه قومه بنو جمح فآذوه، وكان أشدهم عليه وأكثرهم ايذاء له أمية بن خلف، ولذلك قال بعد أن خرج الى الحبشة يعاتبه:

أأخرجتني من بطن مكة آمنا
وأسكنتني في صرح بيضاء تقذع
تريش نبالا لا يواتيك ريشها
وتبري نبالا ريشها لك أجمع
وحاربت أقواما كراما أعزة
وأهلكت أقوامًا بهم كنت تفزع
ستعلم ان نابتك يومًا ملمة
وأسلمك الأوباش ما كانت تصنع

وبقي عثمان بن مظعون فترة في الحبشة، لكنه لم يلبث أن عاد منها ضمن من عاد من المسلمين في المرة الأولى، ولم يستطع أن يدخل مكة الا بجوار من الوليد بن المغيرة، حيث ظل يغدو في جواره آمنا مطمئنا، فلما رأى ما يصيب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من البلاء، وما هو فيه من العافية أنكر ذلك على نفسه، وقال: والله ان غدوي ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي. فذهب الى الوليد بن المغيرة وقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، وقد رددت اليك جوارك، فقال: لم يا ابن أخي؟ فلعلك أوذيت، أو انتهكت، قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله تعالى ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلق الى المسجد فاردد علي جواري علانية، كما أجرتك علانية، فانطلقا الى المسجد فرد عليه جواره أمام الناس، ثم انصرف عثمان الى مجلس من مجالس قريش فجلس معهم، وفيهم لبيد بن ربيعة الشاعر ينشدهم فقال لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» فقال عثمان: صدقت، واستمر لبيد في انشاده فقال: «وكل نعيم لا محالة زائل» فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، قال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: ان هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام اليه ذلك الرجل فلطم عينه فاخضرت، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي ان عينك لغنية عما أصابها، ولقد كنت في ذمة منيعة، فقال عثمان: والله ان عيني الصحيحة لفقيرة الى مثل ما أصاب أختها في الله، واني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، ثم عرض عليه الوليد الجوار مرة أخرى فرفض.

وهذا يدل على مدى قوة ايمانه، ورغبته في الأجر، والمثوبة عند الله، ولذلك لما مات، رأت امرأة في المنام أن له عينًا تجري، فجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال:«ذلك عمله».

وغير ذلك من الصحابة الكرام تعرض للتعذيب، وهكذا نرى أولئك الرهط من الشباب القرشي، قد أقبلوا على دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم واستجابوا لها والتفوا حول صاحبها، على الرغم من مواقف آبائهم وذويهم وأقربائهم المتشددة تجاههم، فضحوا بكل ما كانوا يتمتعون به من امتيازات قبل دخولهم في الاسلام، وتعرضوا للفتنة رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر والثواب، وتحملوا أذى كثيرًا، وهكذا فعل الايمان في النفوس، عندما يخالطها فتستهين بكل ما يصيبها من عنت وحرمان، اذا كان ذلك يؤدي الى الفوز برضا الله تعالى وجنته.

هذا، ولم يكن التعذيب والأذى مقصورًا على رجال المسلمين دون نسائهم، وانما طال النساء أيضا قسط كبير من الأذى والعنت بسبب اسلامهن كسمية بنت خياط وفاطمة بنت الخطاب ولبيبة جارية بني المؤمل، وزنيرة الرومية، والنهدية وابنتها، وأم عبيس، وحمامة أم بلال وغيرهن.

«وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ»

الزواج الطريق الشرعي لمواجهة الميول الجنسية الفطرية

حث الاسلام على علاج مسألة غض البصر علاجا نفسيا وقائيا مؤكدا انه لابد من مواجهتها بحلول واقعية ايجابية هذه الحلول الواقعة هي تيسير الزواج، والمعاونة عليه ؛ مع تصعيب السبل الأخرى للمباشرة الجنسية أو اغلاقها نهائيا فقال تعالى:

«وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله. والله واسع عليم. وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم، ان علمتم فيهم خيرا – وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء، ان أردن تحصنا – لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم».

ان الزواج هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول الجنسية الفطرية، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة.

«وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (32).

فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج، لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها. والعقبة المالية هي العقبة الأولى في طريق بناء البيوت، وتحصين النفوس. والاسلام نظام متكامل، فهو لا يفرض العفة الا وقد هيا لها أسبابها، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء. فلا يلجأ الى الفاحشة حينئذ الا الذي يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامدا غير مضطر.

لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال في طريقهم الى النكاح الحلال.

والأيامى هم الذين لا أزواج لهم من الجنسين.. والمقصود هنا الأحرار. وقد أفرد الرقيق بالذكر بعد ذلك: «والصالحين من عبادكم وامائكم».

وكلهم ينقصهم المال كما يفهم من قوله بعد ذلك: «ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله».

وهذا أمر للجماعة بتزويجهم. والجمهور على أن الأمر هنا للندب ودليلهم أنه قد وجد أيامى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزوجوا. ولو كان الأمر للوجوب لزوجهم. ونحن نرى أن الأمر للوجوب، لا بمعنى أن يجبر الامام الأيامى على الزواج، ولكن بمعنى أنه يتعين اعانة الراغبين منهم في الزواج، وتمكينهم من الاحصان، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية، وتطهير المجتمع الاسلامي من الفاحشة. وهو واجب ووسيلة الواجب واجبة.

وينبغي أن نضع في حسابنا مع هذا – أن الاسلام بوصفه نظاما متكاملا يعالج الأوضاع الاقتصادية علاجا أساسيا، فيجعل الأفراد الأسوياء قادرين على الكسب، وتحصيل الرزق، وعدم الحاجة الى مساعدة بيت المال ولكنه في الأحوال الاستثنائية يلزم بيت المال ببعض الاعانات، فالأصل في النظام الاقتصادي الاسلامي أن يستغني كل فرد بدخله وهو يجعل تيسير العمل وكفاية الأجر حقا على الدولة واجبا للأفراد. أما الاعانة من بيت المال فهي حالة استثنائية لا يقوم عليها النظام الاقتصادي في الاسلام.

فاذا وجد في المجتمع الاسلامي – بعد ذلك – أيامى فقراء وفقيرات، تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج، فعلى الجماعة أن تزوجهم، وكذلك العبيد والاماء. غير أن هؤلاء يلتزم أولياؤهم بأمرهم ما داموا قادرين.

ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقا عن التزويج – متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه رجالا ونساء – فالرزق بيد الله. وقد تكفل الله باغنائهم، ان هم اختاروا طريق العفة النظيف: «ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف».

وفي انتظار قيام الجماعة بتزويج الأيامى يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج: «وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله».. «والله واسع عليم».. لا يضيق على من يبتغي العفة، وهو يعلم نيته وصلاحه.

وهكذا يواجه الاسلام المشكلة مواجهة عملية، فيهيئ لكل فرد صالح للزواج أن يتزوج، ولو كان عاجزا من ناحية المال والمال هو العقبة الكؤود غالبا في طريق الاحصان.